

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شرح كتاب أضواء البيان

معالي الشيخ الدكتور

عبد الكريم بن عبد الله الخضير

عضو هيئة كبار العلماء

وعضو اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

مسجد جعفر الطيار	المكان:	١٤٤٠/٠٣/٠٣ هـ	تاريخ المحاضرة:
------------------	---------	---------------	-----------------



السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

نعم.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله تعالى -: "سورة الأعراف: قَوْلُهُ تَعَالَى: **فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ** {الأعراف: ٢} الآية.

قَالَ مُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ: **حَرَجٌ** {الأعراف: ٢} أَي: شَكٌّ، أَي لَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ شَكٌّ فِي كَوْنِ هَذَا الْقُرْآنِ حَقًّا، وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ فَالْآيَةُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: **الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ** {البقرة: ١٤٧}، وَقَوْلِهِ: **الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ** {آل عمران: ٦٠}، وَقَوْلِهِ: **فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ** {يونس: ٩٤}.

وَالْمُمْتَرِيُّ: هُوَ الشَّاكُّ؛ لِأَنَّهُ مُفْتَعِلٌ مِنَ الْمِرْيَةِ، وَهِيَ الشَّكُّ، وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ فَالْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

وَالْمُرَادُ نَهْيُ غَيْرِهِ عَنِ الشَّكِّ فِي الْقُرْآنِ، كَقَوْلِ الرَّاجِزِ: إِيَّاكَ أَعْنِي وَاسْمِعِي يَا جَارَةً.

وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: **وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا** {الإنسان: ٢٤}، وَقَوْلِهِ: **لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ** {الزمر: ٦٥}، وَقَوْلِهِ: **وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ** {البقرة: ١٢٠} الآية.

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَا يَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُخَاطِبُهُ؛ لِيُوجِّهَ الْخِطَابَ إِلَى غَيْرِهِ فِي ضَمَنِ خِطَابِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

وَجُمُهُورُ الْعُلَمَاءِ: عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْحَرَجِ فِي الْآيَةِ الضِّيقُ، أَي: لَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ ضِيقٌ عَنْ تَبْلِيغِ مَا أَمَرْتَ بِهِ لِشِدَّةِ تَكْذِيبِهِمْ لَكَ؛ لِأَنَّ تَحْمَلَ عِدَاوَةِ الْكُفَّارِ، وَالتَّعَرُّضَ لِطَبْشِهِمْ مِمَّا يَضِيقُ بِهِ الصَّدْرَ، وَكَذَلِكَ تَكْذِيبُهُمْ لَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَعَ وُضُوحِ صِدْقِهِ بِالْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ مِمَّا يَضِيقُ بِهِ الصَّدْرَ، وَقَدْ قَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «إِذَا يَتَلَعَّوْا رَأْسِي فَيَدْعُوهُ خُبْرَةً» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ، وَالثَّلْعُ: الشَّدْحُ، وَقِيلَ: ضَرْبُ الرَّطْبِ بِالْيَأْيَاسِ حَتَّى يَنْشَدِحَ، وَهَذَا الْبَطْشُ مِمَّا يَضِيقُ بِهِ الصَّدْرَ.

وَيَذُلُّ لِهَذَا الْوَجْهِ الْأَخِيرِ فِي الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: **فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَغْضٍ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ** {هود: ١٢}، وَقَوْلُهُ: **وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ أَنْكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ** {الحجر: ٩٧}، وَقَوْلُهُ: **فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا** {الكهف: ٦}، وَقَوْلُهُ: **لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** {الشعراء: ٣}.



وَيُوَيِّدُ الْوَجْهَ الْأَخِيرَ فِي الْآيَةِ أَنَّ الْحَرْجَ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ: الضِّيقُ، وَذَلِكَ مَعْرُوفٌ فِي كَلَامِهِمْ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: **{لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ}** [النور: ٦١]، وَقَوْلُهُ: **{وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرْجٍ}** [الحج: ٧٨]، وَقَوْلُهُ: **{يَجْعَلُ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرْجًا}** [الأنعام: ١٢٥]، أَي: شَدِيدَ الضِّيقِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ، وَمِنْهُ قَوْلُ عُمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ، أَوْ جَمِيلٍ:

فَخَرَجْتُ خَوْفَ يَمِينِهَا فَتَبَسَّمَتْ فَعَلِمْتُ أَنَّ يَمِينَهَا لَمْ تُحْرَجْ
وَقَوْلُ الْعُرَجِيِّ:

عُوجِي عَلَيْنَا رَبَّةَ الْهُودِجِ إِنَّكَ إِلَّا تَفْعَلِي تَحْرُجِي
وَالْمُرَادُ بِالْإِحْرَاجِ فِي الْبَيْتَيْنِ: الْإِدْخَالَ فِي الْحَرْجِ، بِمَعْنَى الضِّيقِ كَمَا ذَكَرْنَا.".

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

القول الأول الذي نسبه لمجاهد، وقتادة، والسُّدي وهو: أن الحرج: الشك، لا شك أن وجود الشك في قلب الإنسان يُوقعه في الحرج، فمآله حينئذٍ إلى الحرج، وكذلك كل شيء -الذي هو الضيق ضيق الصدر- وكذلك كل شيء يتردد فيه الإنسان ولا يصل فيه إلى نتيجة يجد صدره ضيقًا حرجًا بسبب ذلك، ولكن القول الظاهر في هذه المسألة هو قول الجمهور وهو: أن الحرج هنا هو الضيق **{فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرْجٌ مِنْهُ}** [الأعراف: ٢] ألا يكون في صدرك ضيق، ولا يكن في صدرك ضيق من عدم استجابة قومك لك **{لَعَلَّكَ بِأَخَعِ نَفْسِكَ}** [الشعراء: ٣] كل هذا؛ لأن النتائج بيد الله -جلَّ وعلا- وأنت ما عليك إلا البلاغ، استجابوا بها ونعمت، وإن لم يستجيبوا فقد أديت ما عليك.

ولا شك أنه مع هذا النفي للضيق والحسرة التي تنتاب النبي أو الداعي أو أتباع الأنبياء من هذا الضيق الذي يجدونه من عدم استجابة من يدعونهم إلى الله لا شك أنه بسبب الحُرقة والحرص على الدين وأتباع الدين، والحرص على هداية الناس إلى الصراط المستقيم، لكن لا يصل ذلك إلى أن يبخل نفسه وأن يقتل نفسه بسبب ذلك، وإلا فلا شك أن الإنسان إذا استُجيب له إذا أدى ما عليه ودعا وبذل جهده واستطاعته، ثم استُجيب له لا شك أن أجره عظيم، ومن دل على هدى فله مثل أجر من تبعه، فالإنسان يُريد مثل هذا الوعد، بخلاف ما إذا دعاهم ولم يستجيبوا أجر الدعوة ثابت والحمد لله على ذلك، والإنسان مأمور ببذل الأسباب بقدر استطاعته، وما عدا ذلك من زوال المنكر أو استجابة المدعو ليست إليه **{إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ}** [القصص: ٥٦] يقوله الله -جلَّ وعلا- لنبيه -عليه الصلاة والسلام-.

فوجود نوع من الحرج؛ لفوات المصلحة العظمى، أن استجابة المدعو ليكون لي مثل أجره، هذا لا شك أن فوات مثل هذه المصلحة يكون فيها نوع، لكن لا يصل إلى حد ما ذكر الله -جلّ وعلا- عن نبيه، وأنه يُريد أن يبخل نفسه ويقتل نفسه إن لم يستجيبوا.

وجمهور العلماء على أن المراد بالحرج: الضيق، وقوله في آخر الأمر: "وَالْمَرَادُ بِالْإِخْرَاجِ فِي الْبَيْتَيْنِ: الْإِدْخَالُ فِي الْحَرْجِ، بِمَعْنَى الضِّيقِ كَمَا ذَكَرْنَا" فيقال: أخرج فلان فلانًا إذا أدخله في الحرج، مثل ما يُقال: أظلم، يعني دخل الظلام، وأتهم أي: دخل في تهامة، وأنجد إذا دخل في نجد، وهكذا.

طالب:

ماذا فيه؟

طالب:

لا شك أن الشك والتردد والتذبذب في حال الإنسان يُوقعه في الحرج بخلاف ما إذا جزم بالشيء وتيقنه؛ ولذلك تجدون الراحة والطمأنينة في قلب المؤمن الراضي بربه وبأقداره، تجدون الراحة عند العالم الراسخ بخلاف المتردد المتذبذب الذي كل يوم له قول، تجد هذا مضطربًا، وهذا الاضطراب يُوقعه في حرج، فالمسألة ما هي متباعدة، يمكن رجوع هذا إلى هذا.

"قَوْلُهُ تَعَالَى: **{الْتُنذِرْ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ}** [الأعراف: ٢] لَمْ يُبَيِّنْ هُنَا الْمَفْعُولَ بِهِ لِقَوْلِهِ: **{الْتُنذِرْ}** [الأعراف: ٢]، وَلِكُنْهَ بَيَّنَّهُ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ كَقَوْلِهِ: **{وَتُنذِرْ بِهِ قَوْمًا لُدًّا}** [مريم: ٩٧]، وَقَوْلِهِ: **{الْتُنذِرْ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ}** [يس: ٦]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ، كَمَا أَنَّهُ بَيَّنَّ الْمَفْعُولَ الثَّانِي لِإِلْذَارٍ فِي آيَاتٍ أُخَرَ، كَقَوْلِهِ: **{الْيُنذِرْ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ}** [الكهف: ٢] الْآيَةِ، وَقَوْلِهِ: **{فَأَنْذِرْتَكُمْ نَارًا تَلْقَى}** [الليل: ٤]، وَقَوْلِهِ: **{إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا}** [النبا: ٤٠] الْآيَةِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وَقَدْ جَمَعَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بَيْنَ الْإِنْذَارِ وَالذِّكْرَى فِي قَوْلِهِ: **{الْتُنذِرْ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ}** [الأعراف: ٢] فَأِلْذَارٌ لِلْكَفَّارِ، وَالذِّكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ، وَيَذُلُّ لِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: **{فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا}** [مريم: ٩٧]، وَقَوْلُهُ: **{وَذِكْرٌ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ}** [الذاريات: ٥٥]، وَقَوْلُهُ: **{فَذِكْرٌ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعَبِيد}** [ق: ٤٥]."

هو مأمورٌ بتبليغ ما أوحى إليه لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم، فيبليغ ما أوحى إليه فالمؤمن يزداد إيمانًا، والكافر إن كانت الهداية مكتوبة له يهتدي، وإلا تقوم عليه الحجة، فالرسول -عليه الصلاة والسلام- بشير، وهو أيضًا في الوقت نفسه نذير.

"وَلَا يُنَافِي مَا ذَكَرْنَا -مِنَ أَنَّ الْإِنْذَارَ لِلْكَفَّارِ، وَالذِّكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ- أَنَّهُ قَصَرَ الْإِنْذَارَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ دُونَ غَيْرِهِمْ."



لأنهم هم المنتفعون بالدرجة الأولى، وهم الذين يغلب على الظن أنهم يستفيدون من هذا الإنذار، وإلا فكف من كافر واستفاد من الدعوة والإنذار؟ خلائق لا يُحصون، لكن أصل الانتفاع للمسلم للمؤمن الذي يمتثل ما يسمع.

"أَنَّهُ قَصَرَ الْإِنذَارَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ دُونَ غَيْرِهِمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾** [يس: ١١]؛ لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْإِنْتِفَاعُ بِالْإِنذَارِ مَقْصُورًا عَلَيْهِمْ، صَارَ الْإِنذَارُ كَأَنَّهُ مَقْصُورٌ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ مَا لَا نَفْعَ فِيهِ فَهُوَ كَالْعَدَمِ.

وَمِنْ أَسَالِيبِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ: التَّغْيِيرُ عَنِ قَلِيلِ النَّفْعِ بِأَنَّهُ لَا شَيْءَ.

وَحَاصِلُ تَحْرِيرِ الْمَقَامِ فِي هَذَا الْمُبْحَثِ: أَنَّ الْإِنذَارَ يُطْلَقُ فِي الْقُرْآنِ إِطْلَاقَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: عَامٌّ لِجَمِيعِ النَّاسِ، كَقَوْلِهِ: **﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ﴾** [المدثر: ١-٢] وَقَوْلِهِ: **﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾** [الفرقان: ١].

وَهَذَا الْإِنذَارُ الْعَامُّ هُوَ الَّذِي قُصِرَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ قَصْرًا إِضَافِيًّا فِي قَوْلِهِ: **﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾** [يس: ١١] الْآيَةَ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الْمُتَنَفِعُونَ بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ".

فالقصر في هذه الآية إضافي، وليس بقصر حقيقي، بدليل أنك تُنذر المؤمن والكافر **﴿مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾** [يس: ١١] هل هو من اتبع في الماضي أو من كتب الله له الاتباع في المستقبل؟ **﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ﴾** [يس: ١١] إذا كان المراد من اتبع في الماضي فهم المؤمنون مثل: **﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾** [الذاريات: ٥٥].

وإن كان **﴿مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾** [يس: ١١] من كتب الله له الاتباع والهداية، فيكون حينئذٍ القصر حقيقياً؛ لأنه يشمل، لكن يبقى أن التقييد بالوصف وهو الاتباع المذكور في الآية تقل فائدته إذا قلنا: إن المراد **﴿مَنِ اتَّبَعَ﴾** [يس: ١١] من كتب له الاتباع، والله -جلّ وعلا- يُريد أن يُبين أن المسلم المؤمن هو المنتفع دون من سواه ممن مازال متلبساً بالوصف الذي هو عدم الاستجابة، ثم إذا كتب الله له الهداية واستجاب صار من الصنف الآخر.

"وَالثَّانِي: إِندَارٌ خَاصٌّ بِالْكَفَّارِ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الْوَاقِعُونَ فِيهَا أَنْذَرُوا بِهِ مِنَ النَّكَالِ وَالْعَذَابِ، وَهُوَ الَّذِي يُذَكَّرُ فِي الْقُرْآنِ مُبَيَّنًا أَنَّهُ خَاصٌّ بِالْكَفَّارِ دُونَ الْمُؤْمِنِينَ، كَقَوْلِهِ: **﴿لِنَبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرُ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾** [مريم: ٩٧]، وَقَوْلِهِ هُنَا: **﴿لِنُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾** [الأعراف: ٢] انتهى.

وَالْإِنذَارُ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ: الْإِعْلَامُ الْمُقْتَرَنُ بِتَهْدِيدٍ، فَكُلُّ إِندَارٍ إِعْلَامٌ، وَلَيْسَ كُلُّ إِعْلَامٍ إِندَارًا".

طالب:

انتهى ممن نُقِلَ منه، ممن نُقِلَ عنه، ما فيه أحد؟

طالب:

ما نسبه لأحد.

طالب:



ما نسبه لأحد؛ ليقول: انتهى.

طالب:

انتهى التقسيم المراد؟

طالب:

ممكن، مادام ما وجدنا إلا هذا فهو متعين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: **{وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ}** [الأعراف: ٤] خَوْفَ اللَّهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الْكُفَّارَ الَّذِينَ كَذَّبُوهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِأَنَّهُ أَهْلَكَ كَثِيرًا مِنَ الْقُرَى بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمُ الرَّسُلَ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَهْلَكَهَا بَيَاتًا، أَي: لَيْلًا، وَمِنْهُمْ مَنْ أَهْلَكَهَا وَهُمْ قَائِلُونَ، أَي: فِي حَالِ قَيْلُولَتِهِمْ، وَالْقَيْلُولَةُ: الْإِسْتِرَاحَةُ فِي وَسْطِ النَّهَارِ، يَعْنِي: فَاحْذَرُوا تَكْذِيبَ رَسُولِي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؛ لِئَلَّا أَنْزَلَ بِكُمْ مِثْلَ مَا أَنْزَلْتُ بِهِمْ، وَأَوْضَحَ هَذَا الْمَعْنَى فِي آيَاتٍ أُخْرَى كَقَوْلِهِ: **{وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}** [الأنعام: ١٠]، وَقَوْلِهِ: **{فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبُرُّ مُعْتَلَّةً وَقَصِرَ مَشِيدٌ}** [الحج: ٥٥]، وَقَوْلِهِ: **{وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ يَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ}** [القصص: ٥٨]، وَقَوْلِهِ: **{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ}** [محمد: ١٠].
ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّهُ يُرِيدُ تَهْدِيدَهُمْ بِذَلِكَ بِقَوْلِهِ: **{وَاللَّكَافِرِينَ أَهْلُهَا}** [محمد: ١٠]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وَقَدْ هَدَدَ تَعَالَى أَهْلَ الْقُرَى بِأَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابُهُ لَيْلًا فِي حَالَةِ النَّوْمِ، أَوْ ضَحَى فِي حَالَةِ اللَّعْبِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **{أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * وَأَوَّامِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضَحَى وَهُمْ يَلْعَبُونَ}** [الأعراف: ٩٧-٩٨]. وَهَدَدَ أَمْتَالَهُمْ مِنَ الَّذِينَ مَكَّرُوا السَّيِّئَاتِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: **{أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَّرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ}** [النحل: ٤٥-٤٧].

قَوْلُهُ تَعَالَى: **{فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ}** [الأعراف: ٥].
بَيَّنَّ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ تِلْكَ الْقُرَى الْكَثِيرَةَ الَّتِي أَهْلَكَهَا فِي حَالِ النَّبَاتِ، أَوْ فِي حَالِ الْقَيْلُولَةِ، لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنَ الدَّعْوَى إِلَّا اعْتِرَافُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا ظَالِمِينَ.
وَأَوْضَحَ هَذَا الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ: **{وَكَمْ فَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسْنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ}**



لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ { [الأنبياء: ١١-١٥].

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: فِي هَذِهِ الْآيَةِ الدَّلَالَةُ الْوَاضِحَةُ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرَّوَايَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**مَا هَلَكَ قَوْمٌ حَتَّى يُعْذِرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ**» حَدَّثَنَا بِذَلِكَ ابْنُ حُمَيْدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا جَرِيرٌ عَنْ أَبِي سِنَانٍ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَيْسَرَةَ الزَّرَادِيِّ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**مَا هَلَكَ قَوْمٌ حَتَّى يُعْذِرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ**»، قَالَ: قُلْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ: كَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ؟ قَالَ: فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: **﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾** [الأعراف: ٥].

الله -جلَّ وعلا- يغار، يغار الله -جلَّ وعلا- من عباده إذا فعلوا ما يُغضبه، يزني عبده، تزني أمته، ويتتابع كثيرٌ من الناس على ذلك، ويقتنع الناس أنهم مستحقون للعذاب بظهور أفعالهم القبيحة والشنيعة؛ لأنه يُعذَّب إذا انتشرت واشتهرت، وعرفت الناس أنهم قد استحقوا العقاب **«حَتَّى يُعْذِرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ»** لا يكون لهم أدنى عُذر، وبعضهم يشهد على بعض في أمورٍ ظاهرة وواضحة حينئذٍ لا يكون لهم عُذر، ما يقول أحد: والله أنا ما دريت أن المعاصي منتشرة، قد يقولها قائل من أهل العبادة والزهد والخفاء، لكن هؤلاء إذا عمَّتهم العقوبة مع العصاة يُبعثون كما جاء في الحديث **«عَلَى نِيَاتِهِمْ»**، مثل القوم الذين يخرجون للغزو بعضهم مُكره فيصيبه ما يُصيب القوم الذين يُخسف بهم، ثم يُبعثون على نياتهم كما جاء في الحديث.

لكن الإشكال أن يرى الناس ويشتهر ويستفيض عندهم أن المعاصي موجودة في المكان الفلاني في الحي الفلاني في البلدة الفلانية، ومشهور ومُنْتَشِر، والناس لا يُحركون ساكنًا، ولا تتمعر قلوبهم بسبب ذلك؛ حينئذٍ تحق عليهم العقوبة، والله -جلَّ وعلا- عنده سُننٌ إلهية لا تتغير ولا تتبدل، فالأمة السابقة بمِ أهلكوا؟

أهلكت الأمة السابقة بمخالفتهم لأوامر الله -جلَّ وعلا-، وليس بين الله وبين أحدٍ نسب أو سبب يستثنىهم إلا ما جاء عن قوم يونس، والكلام في الآية معروفٌ عند أهل العلم في هذا الاستثناء، لكن غيرهم إذا حق العذاب فلا بُد أن يقع **﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾** [فاطر: ٤٣]، ولا انحراف عن مسارها ما تتحول ولا تتبدل.

«قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

لَمْ يُبَيِّنْ هُنَا الشَّيْءَ الْمَسْئُولَ عَنْهُ الْمُرْسَلُونَ، وَلَا الشَّيْءَ الْمَسْئُولَ عَنْهُ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ. ثُمَّ بَيَّنَّ فِي مَوَاضِعٍ أُخْرَى أَنَّهُ يَسْأَلُ الْمُرْسَلِينَ عَمَّا أَجَابَتْهُمْ بِهِ أُمَّهَاتُهُمْ، وَيَسْأَلُ الْأُمَّمَ عَمَّا أَجَابُوا بِهِ رَسُولَهُمْ.

قَالَ فِي الْأَوَّلِ: **﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾** [المائدة: ١٠٩].

وَقَالَ فِي الثَّانِي: **{وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ}** [القصص: ٦٥].
ثُمَّ بَيَّنَّ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّهُ يَسْأَلُ جَمِيعَ الْخَلْقِ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: **{فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** [الحجر: ٩٢-٩٣].

وَهَذَا إِشْكَالٌ مَعْرُوفٌ: وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ هُنَا: **{فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ}** [الأعراف: ٦]، وَقَالَ أَيْضًا: **{فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** [الحجر: ٩٢-٩٣]، وَقَالَ: **{وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ}** [الصافات: ٢٤].

هنا هذه الآيات أثبتت السؤال، وسيأتي في آيات أخرى نفي السؤال، ولا شك أن هذا محل إشكال، إثبات الشيء ونفيه محل إشكال، ولكن الإثبات محمولٌ على حال، والنفي محمولٌ على حال كما سيأتي.

"وَهَذَا صَرِيحٌ فِي إِثْبَاتِ سُؤَالِ الْجَمِيعِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَعَ أَنَّهُ قَالَ: **{وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ}** [القصص: ٧٨]، وَقَالَ: **{فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ}** [الرحمن: ٣٩].
وَقَدْ بَيَّنَّا وَجْهَ الْجَمْعِ بَيْنَ الْآيَاتِ الْمَذْكُورَةِ فِي كِتَابِنَا (دَفَعِ إِيهَامِ الْإِضْطِرَابِ عَنْ آيَاتِ الْكِتَابِ) وَسَنَزِيدُهُ إِضَاحًا هُنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

اعْلَمْ أَوْلًا: أَنَّ السُّؤَالَ الْمُنْفِيَّ فِي الْآيَاتِ الْمَذْكُورَاتِ، أَخْصَصَ مِنَ السُّؤَالِ الْمُنْتَبِتِ فِيهَا؛ لِأَنَّ السُّؤَالَ الْمُنْفِيَّ فِيهَا مُقَيَّدٌ بِكُونِهِ سُؤَالَ عَنِ الذُّنُوبِ خَاصَّةً، فَإِنَّهُ قَالَ: **{وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ}** [القصص: ٧٨] فَخَصَّهُ بِكُونِهِ عَنِ الذُّنُوبِ، وَقَالَ: **{فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ}** [الرحمن: ٣٩] فَخَصَّهُ بِذَلِكَ أَيْضًا، فَيَتَّضِحُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ سُؤَالَ الرَّسْلِ وَالْمَوْءُودَةِ مَثَلًا لَيْسَ عَنِ ذَنْبٍ فَعَلُوهُ فَلَا مَانِعَ مِنْ وَقُوعِهِ؛ لِأَنَّ الْمُنْفِيَّ خُصُوصُ السُّؤَالِ عَنِ الذُّنُوبِ، وَيَزِيدُ ذَلِكَ إِضَاحًا قَوْلُهُ تَعَالَى: **{لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ}** [الأحزاب: ٨] الْآيَةَ، وَقَوْلُهُ بَعْدَ سُؤَالِهِ لِعِيسَى الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ: **{أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ}** [المائدة: ١١٦] الْآيَةَ، **{قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ}** [المائدة: ١١٩] الْآيَةَ.

وَالسُّؤَالُ عَنِ الذُّنُوبِ الْمُنْفِيَّ فِي الْآيَاتِ: الْمُرَادُ بِهِ سُؤَالُ الْإِسْتِخْبَارِ وَالِاسْتِعْلَامِ".
الله -جلّ وعلا- عالم بما فعلوا فلا يحتاج أن يسألهم عمّا فعلوا، ولكنه سؤال توبيخ وتقريع وتقرير لهم فلا تنافي.

"لِأَنَّهُ -جَلَّ وَعَلَا- مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَلَا يُنَافِي نَفْيُ هَذَا النَّوْعِ مِنَ السُّؤَالِ ثُبُوتَ نَوْعٍ آخَرَ مِنْهُ هُوَ سُؤَالُ التَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيعِ؛ لِأَنَّهُ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ، وَيَدُلُّ لِهَذَا أَنَّ سُؤَالَ اللَّهِ لِلْكَفَّارِ فِي الْقُرْآنِ كُلُّهُ تَوْبِيخٌ وَتَقْرِيعٌ كَقَوْلِهِ: **{وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ}** [الصافات: ٢٤-٢٥]، وَقَوْلِهِ: **{أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ}** [الطور: ١٥] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ وَبَاقِي أَوْجُهِ الْجَمْعِ مُبَيَّنٌّ فِي كِتَابِنَا الْمَذْكُورِ، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى".

الكتاب موجود (دفع إيهام الاضطراب)، وهذا الكتاب للشيخ نفسه.



أقرأه يا شيخ.

"قَوْلُهُ تَعَالَى: **{فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ}** [الأعراف: ٦] الآية هذه الآية الكريمة تدل على أن الله يسأل جميع الناس يوم القيامة ونظيرها قوله تعالى: **{فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** [الحجر: ٩٢-٩٣]، وقوله: **{وَقِفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ}** [الصافات: ٢٤]، وقوله: **{وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ}** [القصص: ٦٥]، وقد جاءت آيات أخر تدل على خلاف ذلك كقوله: **{فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ}** [الرحمن: ٣٩]، وكقوله: **{وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ}** [القصص: ٧٨].

والجواب عن هذا من ثلاثة أوجه:

الأول: وهو أوجهها لدلالة القرآن عليه هو أن السؤال قسمان:

سؤال توبيخ وتقريع، وأداته غالباً لم.

وسؤال استخبار واستعلام، وأداته غالباً هل.

فالمثبت هو سؤال التوبيخ والتقريع، والمنفي هو سؤال الاستخبار والاستعلام، وجه دلالة القرآن على هذا أن سؤاله لهم المنصوص في القرآن كله توبيخ وتقريع كقوله: **{وَقِفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ}** [الصافات: ٢٤-٢٥] وقوله: **{أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ}** [الطور: ١٥]، وكقوله: **{أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ}** [الأنعام: ١٣٠]، وكقوله: **{أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ}** [الملك: ٨] إلى غير ذلك من الآيات، وسؤال الله للرسول **{مَاذَا أَجَبْتُمْ}** [المائدة: ١٠٩] لتوبيخ الذين كذبوهم كسؤال الموءودة **{بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ}** [التكوير: ٩] لتوبيخ قاتلها.

الوجه الثاني: أن في القيامة مواقف متعددة، ففي بعضها يُسألون، وفي بعضها لا يُسألون".

كما جاء في جواب ابن عباس لما سُئل عن إثبات السؤال ونفيه، قال: هي مواقف.

"الوجه الثالث: هو ما ذكره الحلبي من أن إثبات السؤال محمولٌ على السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل، وعدم السؤال محمولٌ على ما يستلزمه الإقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه، ويدل لهذا قوله تعالى فيقول: **{مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ}** [القصص: ٦٥] والعلم عند الله تعالى".

السؤال عن أمرٍ إجمالي والنفي عن الأمور التفصيلية، عن السؤال عن الأمور التفصيلية.

"قَوْلُهُ تَعَالَى: **{فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ}** [الأعراف: ٧].

بَيَّنَّ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ يَقُصُّ عَلَى عِبَادِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَهُ فِي الدُّنْيَا، وَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّهُ -جَلَّ وَعَلَا- لَمْ يَكُنْ غَائِبًا عَمَّا فَعَلُوهُ أَيَّامَ فِعْلِهِمْ لَهُ فِي دَارِ الدُّنْيَا، بَلْ هُوَ الرَّقِيبُ الشَّهِيدُ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ، الْمُحِيطُ عِلْمُهُ بِكُلِّ مَا فَعَلُوهُ مِنْ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ، وَجَلِيلٍ وَحَقِيرٍ، وَبَيَّنَّ هَذَا الْمَعْنَى فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ كَقَوْلِهِ: **{مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ}**

سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: ٧]، وَقَوْلِهِ: {يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} [الحديد: ٤]، وَقَوْلِهِ: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [يونس: ٦١].

إذا كان علم الله -جلّ وعلا- محيطاً بما كان وما لم يكن، وما لم يكن بحيث إذا كان كيف يكون، فالله -جلّ وعلا- أخبر عن أهل النار أنهم يدخلون النار ويذوقون عذابها، وأخبر عنهم أنهم لو رُدوا لعادوا لما نُهوا عنه؛ لأن القلوب بين أصبعين من أصابعه يُقلِّبها كيف يشاء، ويعلم ذلك كله ما كان وما لم يكن لو كان كيف يكون، يعني لو رُدوا لعادوا كيف تكون عودتهم على طريقتهم السابقة أو على طريقةٍ أخرى؟ فعلمه محيطٌ بكل شيء.

لكن يبقى مسألة الخلاف بين المتكلمين هل المعدوم شيء أو ليس بشيء؟ وهل يدخل تحت الإحاطة أو لا يدخل؟ مسائل تفصيلية، لكن الآية في قوله -جلّ وعلا-: {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا} [الأنعام: ٢٨] يدل على أنه يعلم أنهم لو استُجيب لهم وأُخرجوا إلى دار الدنيا أنهم سيفعلون ما نهوا عنه، والله المستعان.

"نَّبِيَّةٌ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الرَّدُّ الصَّرِيحُ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ النَّافِيَةِ صِفَاتِ الْمَعَانِي، الْقَائِلِينَ: إِنَّهُ تَعَالَى عَالِمٌ بِدَاتِهِ، لَا بِصِفَةٍ قَامَتْ بِدَاتِهِ، هِيَ الْعِلْمُ، وَهَكَذَا فِي قَوْلِهِمْ: قَادِرٌ مُرِيدٌ، حَيٌّ سَمِيعٌ، بَصِيرٌ مُتَكَلِّمٌ، فَإِنَّهُ هُنَا أُثْبِتَ لِنَفْسِهِ صِفَةَ الْعِلْمِ بِقَوْلِهِ: {فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ} [الأعراف: ٧]، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {أَنْزَلْنَاهُ بِعِلْمِهِ} [النساء: ١٦٦] الْآيَةَ، وَهِيَ أُدِلَّةٌ قُرْآنِيَّةٌ صَرِيحَةٌ فِي بُطْلَانِ مَذْهَبِهِمُ الَّذِي لَا يَشْكُ عَاقِلٌ فِي بُطْلَانِهِ وَتَنَاقُضِهِ".

نفي العلم عند أهل العلم عند أهل السُنَّة والجماعة سلف الأمة وأئمتها كُفر، الذي ينفي العلم عن الله -جلّ وعلا- والتوقف في تكفير أمثال هؤلاء أنهم أنكروا بتأويل ما أنكروا مُعاندة ومُحاداة ومُضادة، يعني مآل قولهم إلى الإنكار، وإلا لو أنكروه كما قال الشافعي وغيره: ناظروهم بالعلم، ناظروا القدرية بالعلم، هم والمعتزلة ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خُصموا، وإن أنكروه كفروا.

"قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ} [الأعراف: ٨] بَيَّنَّ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ وَزْنَهُ لِلْأَعْمَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَقٌّ أَيْ: لَا جَوْرَ فِيهِ، وَلَا ظُلْمَ، فَلَا يُزَادُ فِي سَيِّئَاتِ مُسِيءٍ، وَلَا يُنْقُصُ مِنْ حَسَنَاتِ مُحْسِنٍ".

طالب:

أين؟

طالب:



التوقف؟

هو في أول الأمر ونشوء البدعة، والقول بخلق القرآن أطلق كثير من السلف، بل منهم خمسمائة عالم كفرهم، يقول:

ولقد تقلد كفرهم خمسون في عشر من العلماء في البلدان

خمسمائة عالم، لكن لما تتابع الناس على هذه البدعة، ولاكتها أنفسهم، ودرسوها، ودرسوا أدلتها، وتلوثت فطرم بهذه الشبهة، واقتنع بها كثير ممن بعدهم، هل يستطيع أن يقول شخص: إن الزمخشري كافر؟

لا، هو ما يهمة نتيجته، أنا ما أقول المسألة، المسألة على هؤلاء المعتزلة هم أنكروا العلم، لكن بطريقة غير صريحة، فالمؤدى واحد هو مذهب هؤلاء القوم، هذا وهذا كل مذهبهم، يعني الذي يبحث في خلق القرآن يعزب عليه أن مسألة العلم من قولهم؟

طالب:

ما ينكرونه مصارحة هذا مؤداه، مؤداه إنكار العلم، ولو أنكروه صراحةً وناقضوا القرآن حتى هم يكفرون أنفسهم، ما أحد يدخلهم في الإسلام أصلاً.

"وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: [وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ] [الأنبياء: ٤٧]، وقوله: [إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا] [النساء: ٤٠] الآية إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: [فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ] [الأعراف: ٨-٩].

بين تعالى في هذه الآية الكريمة: أَنَّ مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُمْ أَفْلَحُوا".

يعني بزيادة الحسنات على السيئات، برجحان كفة الحسنات على كفة السيئات، وفضل الله واسع، ولا ترجح كفة السيئات مع المضاعفة للحسنات عشر أمثالها إلى أقل، وهذا أقل تقدير إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة - وفي المسند: إلى ألف ضعف - مع السيئات التي هي مجرد وحدان سيئة واحدة لا تضاعف قد تُعظم؛ لعظم المكان أو الزمان، لكن المضاعفات ما فيه مضاعفة، والسيئة إذا تاب صاحبها أبدلت حسنة؛ ولذا يقول كثير من السلف: قد خاب وخسر من فاقت آحاده على عثراته، يعني في أمور الدنيا الآن إذا كان صاحب أموال طائلة وأنفق منها بقدر وأشياء يسيرة بقدر الحاجة في الغالب أنها تبقى بخلاف من يُبذّر، وهذا الخاسر من يُبذّر ويزيد في الإنفاق على وجوه الشر لا في وجوه الخير؛ ولذا قيل للشاعر: سلم الخاسر، سلم الخاسر، قالوا: إنه ورث مصحفًا من أبيه فباعه واشترى به طنبورًا، يُسمونه سلم الخاسر.

"بَيَّنَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُمْ أَفْلَحُوا، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُمْ خَسِرُوا بِسَبَبِ ظَلْمِهِمْ، وَلَمْ يُفَصِّلِ الْفَلَّاحَ وَالْخُسْرَانَ هُنَا.

وَقَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْفَلَّاحِ هُنَا كَوْنُهُ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ فِي الْجَنَّةِ، وَأَنَّ الْمُرَادَ بِالْخُسْرَانَ هُنَا كَوْنُهُ فِي الْهَاطِيَةِ مِنَ النَّارِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: **{فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاطِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ نَارٌ حَامِيَةٌ}** [الفارعة: ٦-١١].

وَبَيَّنَ أَيْضًا خُسْرَانَ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، بِقَوْلِهِ: **{وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالْحِوْنِ}** [المؤمنون: ١٠٣-١٠٤] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: **{وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ}** [الأعراف: ١٠] لَمْ يَبَيِّنْ هُنَا كَيْفِيَّةَ هَذِهِ الْمَعَايِشِ الَّتِي جَعَلَ لَنَا فِي الْأَرْضِ، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَّ ذَلِكَ فِي مَوَاضِعٍ أُخَرَ كَقَوْلِهِ: **{فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعَيْنًا وَقَصْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ}** [عبس: ٢٤-٣٢].

مَعَايِشِ جَمْعٌ لِمَعِيشَةٍ؛ وَلِذَلِكَ جَاءَتْ بِالْيَاءِ لَيْسَتْ مَعَائِشَ، وَإِنَّمَا هِيَ مَعَايِشُ جَمْعُ مَعِيشَةٍ، وَأَجْلِبَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي الرَّدِّ عَلَى ابْنِ الْأَثِيرِ فِي كِتَابِهِ (الْمَثَلُ السَّائِرُ) قَالَهَا بِالْهَمْزِ، وَرَدُّوا عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ، كَثُرَتْ الرَّدُودُ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَفِي غَيْرِهَا مِنَ الْمَسَائِلِ لَهُ هَفَوَاتٍ، وَلَكِنْ مِنْ أBRَزْهَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ.

"وَقَوْلِهِ: **{أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ}** [السجدة: ٢٧]، وَقَوْلِهِ: **{وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى}** [طه: ٥٣-٥٤]. وَذَكَرَ كَثِيرًا مِنْ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الدَّحْلِ كَقَوْلِهِ: **{وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ}** [النحل: ٥] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ".

قف على هذا.

في قوله -جلّ وعلا-: **{أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ}** [السجدة: ٢٧] الأرض الجرز التي لا نبت فيها، فيُسَاقُ إِلَيْهَا الْمَاءُ فَتَنْبِتُ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

طوى النحر والأجزاء ما في غروضها

البيت معروف؟

من شواهد ابن عقيل.

وما بقيت إلا الضلوع الجراشع



"النَحْزُ وَالْأَجْرَازُ" يعني: السير على هذه الأراضي التي لا نبت فيها، والنحز لعل المراد به: ما يكون بالعصا حينما تُنحز من أطرافها؛ لتُجد في السير، مع أنها ما تأكل ما في الأرض شيء، وما بقي منها إلا الضلوع ما بقي من اللحم شيء.
اللهم صلِّ على محمد.